

الوضعية العامة للخطاب القرآني عند محمد أركون _ دراسة نقدية _

**The general situation of the Qur'anic discourse according to
Muhammad Arkoun - a critical study**

د. محمد نذير أوسالم

ط.د. رميلاوي أسامة *

كلية العلوم الإنسانية والعلوم الإسلامية جامعة وهران 1 أحمد بن بلة _ الجزائر _

oussalem.mohamed@univ-oran1.dz

oussama97remi@gmail .com

مخبر الدراسات القرآنية والمقاصدية.

تاريخ النشر: 2024/11/15

تاريخ القبول: 2024/10/23

تاريخ الاستلام: 2024/03/19

ملخص:

يعتبر أركون من المفكرين الذين حاولوا دراسة القرآن وإعادة قراءته بطريقة تأويلية حديثة، وكانت دراسته دائما عرضاً للإشكالات وإثارة للشبهات حول القرآن و رداً لأقوال المفسرين التراثيين ومحاولة للطعن في كثير من ثوابت هذا الدين، ومما تحدث عليه أركون في مواضيع من كتبه مسألة الوضع العام للخطاب القرآني واستحالة معرفته، فبسبب هذه التشكيكات، وكثرة هذه الطعون حاولنا أن أكتب هذه الورقة، طارحين التساؤلات التالية: ما معنى الوضعية العامة للخطاب القرآني؟ وكيف تعامل أركون في دراسته لها؟ وما جواب ذلك؟.

تهدف هذه الدراسة للإجابة على الأسئلة المطروحة أولاً، ثم بيان منهج أركون في دراسته للمسألة، اظهاراً

لتنافضاته فيها، والله المعين.

الكلمات المفتاحية: الوضع العام، تناقضات، القرآن، أركون، خطاب.

Research Summary

Arkoun is considered one of the thinkers who tried to study the Qur'an through a modern Interpretive reading. His studies always presented Problems and raised doubts about the Quran, in response to the statements of traditional commentators and an attempt to Challenge many of the principles of this religion. Among the things Arkoun spoke about implace in this studies books was the issue of the general status of Quranic discourse and impossibility of knowing it Because of these doubts, and the abundance of these appeals, I tried to write this paper, asking the following questions: what is the meaning of the general status of

quranic discourse? how did Arkoun deal with his studies. for it? And what is the answer to that? the letter aims to explain Arkoun's approach to his study of the issue, and to show his contradictions in it, and God is the Helper.

Key words: General situation, contradiction , Quran, Arkoun, speech.

*المؤلف المرسل

1. مقدمة:

الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على سيدنا محمد الأمين وعلى آله وصحبه أجمعين ناصر الحق

بالحق والهادي الى صراط الله المستقيم، أما بعد:

فإن الدرس الحدائلي للقرآن الكريم دائماً عرض الشبه والإشكالات والتشكيكات، وملئ بالتناقضات، ولا تجد مفكراً حدثاً إلا وله من هذه المواصفات نصيب، ومن بين هؤلاء الدارسين المفكر الجزائري محمد أركون الذي تلبس بكثير من تلك الأوصاف، ومما يطرحه أركون في قراءته التأويلية [تشكيكا في القرآن وطعننا في التفاسير الأثرية] مسألة معرفة الظروف العامة للخطاب القرآني، أين يبنى أركون قراءته التأويلية للقرآن على هذه المسألة بصورتين مختلفتين تارة بصورة العارف المستبصر لها وتارة بصورة الجاهل الذي يستحيل أن تدرك بأي سبيل من السبل، وعليه أردنا كتابة هذه الورقة مجيبين على الإشكالات التالية: ما معنى الوضعية العامة للخطاب القرآني؟. ما مصادر معرفتها؟. وما تناقضات أركون فيها؟.

المهدف من هذه الدراسة بيان معنى الوضعية العامة للخطاب القرآني، مصادر معرفتها التي تغافل أركون

عنها، وإظهار تناقضاته فيها.

اتبعنا في هذه الدراسة المنهج الوصفي التحليلي وكذا المنهج النقدي، وذلك من خلال وصف مسائل هذا البحث وتحليلها، ثم بنقد بعضها وبيان مخالفتها للصواب، أين قُسم البحث إلى خمسة عناوين أساسية، تندرج تحتها فروع، خاتماً البحث بخاتمة ذكرت فيها أهم النتائج المتوصل إليها، ثم أخيراً أدرجت قائمة مجموعة المصادر والمراجع المعتمدة.

2. مدخل تعريفي:

في هذا المدخل التعريفي سآتي بترجمة مختصرة للمفكر محمد أركون حتى يكون القارئ على معرفة بالشخصية التي تتعلق بها الدراسة وتتضح ملامحها عنده، ثم بيان مفهوم الوضعية العامة للخطاب القرآن في نظر أركون نفسه لأنها أساس البحث ، وكذا تعريف أسباب النزول وبيان أهميتها لما لها من تعلق بالموضوع.

1.2. التعريف بالمفكر محمد أركون:

هو المفكر الجزائري محمد أركون ولد سنة 1928م، في منطقة بلاد القبائل بالجزائر، درس المرحلة الابتدائية في قريته تاوريت ميمون، ثم انتقل رفقة عائلته إلى ضواحي وهران وأتم دراسة المرحلة الثانوية هناك، عانى فيها من عنصرية الاستعمار الفرنسي وقسوته، وبعدها سافر إلى الجزائر ليتم دراسته الجامعية، تحصل بها على شهادة الليسانس في اللغة العربية وآدابها، ثم إلى فرنسا مسجلا في معهد الدراسات الإسلامية _بالسوربون_ و نال شهادة الأستاذية، ليشغل منصب أستاذ كرسي تاريخ الفكر الإسلامي بعدها، الكرسي الذي كان شديد الدعوة إلى تأسيسه، عرف أركون بقطيعته الفكرية مع أصحاب الفكر الإسلامي التراثي، وكذا الفكر الغربي الاستشراقي، شديد الانتقاد لهم، له عدة مؤلفات جملها بالفرنسية، ثم ترجم كثير منها إلى العربية وأهمها:

__ من الاجتهاد إلى نقد العقل الإسلامي.

__ نزعة الأنسنة في الفكر العربي.

__ قراءات في القرآن.

__ القرآن من التفسير الموروث إلى تحليل الخطاب الديني

__ الفكر الأصولي واستحالة التأصيل، التشكيل البشري للإسلام... وغيرها.

توفي أركون سنة 2010م ودفن في المغرب بوضعية منه، تاركا خلفه ضجة كبيرة ودراسات عديدة على مشروعه وأراءه الفكرية¹.

2.2 تعريف الوضعية العامة للخطاب القرآني عند أركون:

¹ ينظر: رشيد بن زين المفكرون الجدد في الإسلام ص 87_90. ينظر: محمد أركون، التشكيل البشري للإسلام، سنة 2013م، ص 26_57.

يذكر محمد أركون في كتابة تعريفًا للوضعية العامة للخطاب كما عرفها اللسانيون، حيث يقول: « ندعو الوضعية العامة للخطاب مجمل الظروف التي جرى في داخلها فعل لفظي كلامي مكتوبًا أكان أم شفهيًا. ينبغي أن نفهم ذلك على أساس أنه يشمل في آن معًا المحيط الفيزيائي المادي والاجتماعي الذي جرت داخله عملية الكلام من جهة، والصورة التي شكلها المستمعون عن الناطق لحظة تفوهه بالخطاب من جهة أخرى، كما يعني المصطلح هوية هؤلاء المستمعين والفكرة التي يشكلها كل واحد منهم عن الآخر، بما في ذلك التصور الذي يمتلكه كل واحد عن رأي الآخر فيه، كذلك يعني المصطلح تلك الأحداث التي سبقت مباشرة عملية القول التلفظ بالكلام، خاصة العلاقات التي كان المتخاطبون يتعاطونها فيما بينهم، ثم بوجه أخص التبادلات الكلامية التي اندرج فيها الخطاب المعني¹».

ينبغي أن يعلم أن محمد أركون يدعو إلى قراءة النص القرآني كأبي نص لغوي ولا حاجة لأن تطرح قضية المؤلف في الدراسة، فهو ممن يدعوا بشدة لتطبيق اللسانيات لفهم القرآن ومنها المنهج البنوي الذي يبنى دراسته أساسًا على البنية اللغوية للنص بعيدًا عمدًا يدور خارجه من ظروف². لذلك عند تعريفه للوضعية العامة للخطاب القرآن لا يفرق بين تعريف لغوي ألسني أو تعريف اصطلاح، أين يجري التعريف الألسني ثم يحمله مباشرة على الخطاب القرآني.

أركون يعبر عن الوضعية العامة للخطاب القرآني بمسميات متقاربة تحمل في كيانها نفس المفهوم والدلالة وهي: الحالة العامة للخطاب، الظروف التي نزل فيها الخطاب، ظروف الخطاب...، وما أشبه هذا من تعابير.

3.2. خلاصة معنى الوضع العام للخطاب على الخطاب القرآني:

مما سبق وإذا أردنا أن نبين معنى الوضعية العامة للخطاب على الخطاب القرآني بشكل أوضح، يمكن الوصول إلى أن معنى هذا الأخير يتمثل في الأمور التالية:

__ مجمل الظروف الفيزيائية المادية والاجتماعية لمكان نزول القرآن وأفراده: أي ما يتعلق بالجوانب المادية لمنطقة الجزيرة العربية عامة، مكة والمدينة خاصة، والظروف الاجتماعية، الاقتصادية والسياسية والعرفية للأفراد هناك وقت نزول القرآن من مختلف الجوانب.

¹ محمد أركون، قراءات في القرآن، سنة 2017م. ص 153.

² ينظر: المرجع السابق ص 171، ينظر: إبراهيم بن يحيى مناهج الحديثيين في قراءة النص القرآني مقال بمركز تفسير للدراسات القرآنية ص 09.

__ الصورة التي يشكلها المستمعون للقرآن عن الناطق الأول¹ به وهو النبي صلى الله عليه وسلم لحظة تلاوته له (أي ردود الفعل)، ويدخل فيه ما تناقله بعضهم عن بعض عنه صلى الله عليه وسلم هذا خاص بمن شُع من في رسول الله _ صلى الله عليه وسلم _، وكذلك معرفة هوية هؤلاء المستمعين للقرآن وآرائهم، من موالين له وهم الصحابة المؤمنون، ومعارضين وهم كفار قريش ومنافقوا المدينة ومن مثلهم، وما يشكلونه من وجهة نظر في النبي صلى الله عليه وسلم من جهة، ووجهة نظر كل واحد منهم عن الآخر والعلاقات المتبادلة .

__ ثم معرفة الأحداث التي سبقت نزول الآيات والصور القرآنية سواء التي كانت سببا داعيا لنزولها أو لا وهو ما يعبر عنه بأسباب النزول.

3.2. أسباب النزول والوضعية العامة للخطاب القرآني:

يقصد بأسباب النزول تلك الأحداث التي وقعت في زمن النبوة والتي كانت سببا في نزول القرآن، وكذلك الأسئلة والاستفسارات التي وجهت إلى النبي صلى الله عليه وسلم ونزلت الآيات جوابا عنها². ولعلم أسباب النزول أهمية عظيمة يذكرها المعتنون بعلوم القرآن عامة وبه خاصة، إذ هو سبيل³ مستعان به لفهم الآيات القرآنية وإزالة بعض الإشكالات المعرفية وبناء كثير من الأحكام العملية. أما عن علاقتها بالوضعية العامة للخطاب القرآني تعتبر أسباب النزول جزءا مهما منها إذ تعتبر من الأحداث التي سبقت عملية القول والتلفظ بالقرآن، كما أن في رواياتها إبانة عن كثير من الظروف التي جرى فيها الخطاب و تشكل، وكذا تعين على معرفة البيئة التي نزل القرآن فيها ، وهذا بشهادة أركان نفسه وإن حاول التقليل من قيمتها المعرفية³.

3.3. مصادر معرفة الوضعية العامة للخطاب القرآني:

إذا ما أدركنا جيدا معنى الظرف العام للخطاب القرآني والبحث الذي يطرحه أركون، انتقل إلى الحديث على ما يمكن أن يهتدى به لمعرفة الظروف العامة للخطاب القرآني كمصادر لمعرفتها.

¹ يقصد بالناطق الأول محمد صلى الله عليه وسلم، وهذا تعبير أركوني استعمله للفرقة بين المنطوقة الأولى والذي يقصد بها القراءة كما تلفظ به النبي صلى الله عليه وسلم، والمنطوقة الثانية وهو القرآن كما وصل إلينا مكتوبا من بعده، ولما كانت هذه الدراسة متعلقة بأركون استعمل هذا اللفظ مجازا له فقط . ينظر

:محمد أركون، القرآن من التفسير الموروث إلى تحليل الخطاب الديني، سنة: 2001م، ص118.

² محمد علي حسن، المنار في علوم القرآن، سنة 200م / 1421هـ، ص136.

³ قراءات في القرآن ص153.

1.3. القرآن الكريم وكتب السنة.

وأول ما نذكره من المصادر والكتب أعلاها شأنًا وأصدقها قولًا وأقواها دليلًا وهو القرآن الكريم وكتب السنة المطهرة، أما القرآن الكريم فقص لنا وأخبرنا إجمالًا [ولا ضير في ذلك فقد ورد في كتب السنة وغيرها من المصادر تفاصيل كثيرة عنها]، أخبرنا القرآن بكثير من معاني الظرف العام للخطاب القرآني، كما أرادها أركون نفسه، فأياته تصف لنا البيئة التي نزل فيها القرآن بيئة صحراوية، أهلها أصحاب تجارة، مشركون بالله عابدون للأصنام، معظمون لبيت الله الحرام قال تعالى: ﴿لَا يَلْفُ قُرَيْشٌ إِلَّا فِيهِمْ رَحْلَةَ الشِّتَاءِ وَالصَّيْفِ﴾ [قريش: 1-2]، لم يسبق رسول الله - صلى الله عليه وسلم - إليهم بشير ولا نذير، قال الحق سبحانه: ﴿أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ بَلْ هُوَ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ لِتُنذِرَ قَوْمًا مَا أَتَاهُمْ مِنْ نَذِيرٍ مِنْ قَبْلِكَ لَعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ﴾ [السجدة: 3]، مزيج بين العرب واليهود، وتخبرنا الآيات بأنه منهم مؤمن بما جاء به النبي - صلى الله عليه وسلم - ومنهم كافر نحو قوله: ﴿وَمِنْهُمْ مَنْ يُؤْمِنُ بِهِ وَمِنْهُمْ مَنْ لَا يُؤْمِنُ بِهِ وَرَبُّكَ أَعْلَمُ بِالْمُفْسِدِينَ﴾ [يونس: 40]، صفات النبي ومن يواليه من الصحابة، وتلك الصورة التي يشكلونها فيما بينهم أو عن معارضيتهم مما أخبرنا القرآن بها في قوله تعالى: ﴿مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللَّهِ وَالَّذِينَ مَعَهُ أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ﴾ [الفتح: 29]، وكذلك الصورة التي يشكلها معارضوهم عنهم، يخبرنا بالتشكيل البشري للمنطقة آنذاك، مسلمون مؤمنون، منافقون، أهل كتاب من اليهود والنصارى، وبعض ما دار بينهم نقاشات وسجلات، من حروب ونزاعات، ويخبرنا بردود فعلهم حين نزول الوحي سواء المؤمنون منهم كما في قوله: ﴿إِنَّمَا كَانَ قَوْلَ الْمُؤْمِنِينَ إِذَا دُعُوا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ أَنْ يَقُولُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا﴾ [النور: 51]، أو المنافقون والمشركون المعارضون بوصفهم النبي بالجنون المفترى، قال تعالى واصفًا حالهم: ﴿وَقَالُوا يَا أَيُّهَا الَّذِي نُزِّلَ عَلَيْهِ الذِّكْرُ إِنَّكَ لَمَجْنُونٌ﴾ [الحجر: 6] وقال: ﴿وَإِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَخْدَهُ اشْمَأَزَّتْ قُلُوبُ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ وَإِذَا ذُكِرَ الَّذِينَ مِنْ دُونِهِ إِذَا هُمْ يَسْتَبْشِرُونَ (٤٥)﴾ [الزمر: 45]، كما لم تغفل الآيات القرآنية بعضًا من ذكر أسباب النزول تلميحا وإشارة، إجمالًا لا تفصيلًا، من ذلك قول الله تعالى: ﴿يَسْأَلُونَكَ مَاذَا أُحِلَّ لَهُمْ قُلْ أُحِلَّ لَكُمْ الطَّيِّبَاتُ وَمَا عَلَّمْتُمْ مِنَ الْجَوَارِحِ مُكَلِّبِينَ تُعَلِّمُوهُنَّ مِمَّا عَلَّمَكُمُ اللَّهُ فَكُلُوا مِمَّا أَمْسَكْنَ عَلَيْكُمْ وَادْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ عَلَيْهِ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ﴾ [المائدة: 4].

وأما كتب السنة فقد روت لنا مثل ذلك وكثير، ومما ذكر فيها:

— ما رواه البخاري وغيره أنه كان من حال بعض الناس وقت التنزيل، إذا أراد كافل اليتيمة أن يتزوج اليتيمة التي في حجره لجمالها ومالها يعطيها مهرا أقل من مهرها، فنزل القرآن الكريم أمرا بأن يقسطوا لهن وأن يعطوهن صداقهن كاملا أو بنكاح غيرهن من الأزواج مثنى وثلاث ورباع¹.

— وكذلك من حال المشركين وقت نزول التنزيل وتلفظ النبي — صلى الله عليه وسلم — به وردة فعل كل من الموالين أو المعارضين، من ذلك ما روي عن ابن عباس — رضي الله عنهما — قال: «سجد النبي صلى الله عليه وسلم بالنجم، وسجد معه المسلمون والمشركون، والجن والإنس²».

وإن القارئ لكتب السنة بكل أبوابها وجميع أحاديثها والمتأمل فيها بنظرة عقلية استنباطية لن يجد أدنى

شك في معرفة الظروف العامة للخطاب القرآني.

2.3. كتب التاريخ عامة وكتب السيرة النبوية خاصة.

وهذه أيضا ذكرت أكثر ما يتعلق بالوضعية العامة للخطاب القرآني إجمالاً وتفصيلاً، فذكرت ما يتعلق بالأمور المادية أي الصفات الفيزيائية لمنطقة نزول الوحي، وكذا صفات أفرادها وجماعاتها، كيف كان يعيش أهلها قبل الإسلام وبعده؟، ما كان مكسب رزقهم؟، وكيف كان التركيب الاجتماعي؟، كيف كان تدينهم؟، كيف عاش النبي صلى الله عليه وسلم؟ وكيف كان ينظر إليه قومه قبل وبعد بعثته؟ .

ذكرت لنا هاته الأصناف من الكتب متى نزل القرآن وكيف، وما الصورة التي يشكلها المستمعون للقرآن عن الناطق به وهو النبي صلى الله عليه وسلم لحظة تلاوته وكيف كانوا ينظرون إليه، بعد بعثته وبعد لحظة تلاوته للقرآن وقبلها، وكذلك معرفة هوية هؤلاء المستمعين للقرآن وآرائهم، من الموالين له كأبي بكر وعمر وعثمان وعائشة، وهم الصحابة المؤمنون إجمالاً، ومعارضين وهم كفار قريش ومنافقوا المدينة كأبي لهب وأبي جهل، وكأبي بن خلف وعبد الله بن سلول ومن مثلهم، وما يشكلونه من وجهة نظر في النبي صلى الله عليه وسلم من جهة، ووجهة نظر كل واحد منهم عن الآخر والعلاقات المتبادلة.

فمما يُذكر أنَّ بيئة الجزيرة العربية بيئة صحراوية، مصدر قوت سكانها وجل اقتصادهم قائم على التجارة، لهم رحلتان واحدة في الشتاء وأخرى في الصيف، هم طبقتان، طبقة غنية سيدة، وطبقة فقيرة هشة إما خدم أو

¹ صحيح البخاري ج 5 ص 1945

² المرجع نفسه ج 4 ص 1842.

عبيد لساداتهم، كما لم تغفل الحديث عن عاداتهم وأد الإناث ولا تقاليدهم رفاة الحجاج، حدثت عن أنسابهم وأصولهم¹، صورت حالهم مع نزول الوحي كصورة عتبة بن ربيعة وهو المعروف بالحلم كيف توجه إلى النبي صلى الله عليه وسلم _محاولا صده عما هو فيه، عارضا عليه ملكا يملكه فيه، أو نساء يزوجهن له، أو أموالا يكسبها إياه، أو طبيبا يعالجه مما فيه إن كان به مرض، ثم ينصت للنبي صلى الله عليه وسلم حال نزول آيات سورة فصلت بكل خشوع وركون واضعا يديه خلف ظهره، وكيف انصرف مندهشا بالقرآن متعجبا منه راجعا لأصحابه بغير الوجه الذي ذهب به حتى ظن أصحابه أنه قد صدق وآمن ، لكن رجع منتكسا على عقبه مكذبا غير مؤمن²، وروت لنا بعض من يهرب من سماع القرآن لما يجد من صدئ في قلبه وعقله، وبعضا ممن يسمعه خلصة وهو أشد المعارضين له والمنكرين³، روت هذه الصور كحالة للمستمعين وردود فعلهم عن الناطق بالقرآن لحظة تفوهه بالخطاب. ومن بين الكثير من كتب التاريخ والسير التي تناولت كل هذا:

_ الحياة العربية من الشعر الجاهلي لأحمد الخوي .

_ تاريخ العرب القديم لتوفيق برو .

_ الكامل في التاريخ لابن الأثير

_ كتاب السيرة لابن إسحاق.

_ كتاب المغازي للواقدي.

_ كتاب السيرة النبوية لابن هشام

والكثير من الكتابات المخطوطة في مكتبات التراث الإسلامي في المشرق والمغرب.

3.3. كتب أسباب النزول:

أسباب النزول هي الأحداث والوقائع التي سبقت نزول القرآن أو آياته، أو التي كانت سببا في نزولها، وهذه تتعلق ببعض الآيات والسور، ولقد اعتنى علماء المسلمين الأوائل بدراسة القرآن الكريم من مختلف جوانبه واعتنوا بشتى العلوم المتعلقة به، حتى يُهتدى إلى الإيمان به وحتى يفهم بطريقة صحيحة، ومن بين العلوم التي قعدوها وأصلوها لها علم أسباب النزول، الذي يعتبر ذو أهمية كبيرة في معرفة الظرف العام للخطاب القرآني، صنفوا فيه الكتب وألفوا فيه المؤلفات، ومع أن الأصل في روايات أسباب النزول اندراجها ضمن كتب السنة والسيرة،

¹ ينظر: صفى الدين المباركفوري، الرحيق المختوم، سنة 1428هـ / 2008م ص43 إلى 48

² ينظر: عبد الملك بن هشام، السيرة النبوية ، سنة 1375هـ / 1955م ج1 ص293.

³ ينظر :المرجع نفسه ج1 ص315.

لكن لما كان لها من الفائدة العظيمة والقيمة المعرفية للتفسير وفهم كلامه تعالى أفردت بالتأليف وخصت بالعاية، ومحمد أركون ممن يثبت القيمة المعرفية لعلم أسباب النزول، ولو أنه اعترض عليه وانتقده¹.

يعتبر علم أسباب النزول مما يعين على معرفة الظروف العامة للخطاب القرآني، من خلال معرفة الأحداث التي سبقت نزول بعض الآيات والسور، وما ذكره المعتنون بهذا العلم سبب نزول قول الله تعالى: ﴿طه مَا أَنزَلْنَا عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لِتَشْقَى﴾ [طه: 1-2] وهو أن المشركين قالوا للنبي صلى الله عليه وسلم إنك تشقى بترك ديننا، بسبب ما رأوه من كثرة عبادته واجتهاده فيها صلى الله عليه وسلم²، ومن أشهر الكتب التي تناولت أسباب النزول:

- كتب التفسير عامة كجامع البيان في تأويل أي القرآن للطبري، و أحكام القرآن لابي بكر ابن العربي.
- مرويات أسباب النزول في كتب الحديث والسنن.
- كتاب أسباب النزول لأبي الحسن الواحدي.
- كتاب أسباب النزول لابن المديني.

4. الوضع العام للخطاب القرآني عند أركون بين الإثبات والنفي:

إن الدارس لفكر أركون وكتبه لن يصعب عليه معرفة تناقضاته في المسألة الواحدة، ستجده يقول قولاً هنا ويخالفه هناك، و يقرر فكرة ما في كتاب ثم ينقض غزله في كتاب آخر، وهذا ما كان منه في مسألة الوضع العام للخطاب القرآني، أين يتقلب أركون تقلبات عديدة، تارة يستغني عن البحث عنها وتارة يدعو لمعرفة، ثم تارة يحيل إدراكها وتارة يظهر معرفته بها.

4.1. تناقضات أركون في طلب معرفة الوضعية العامة للخطاب القرآني من عدمه:

يذكر محمد أركون أثناء دعوته لتطبيق القراءة اللغوية الألسينية على القرآن عدم الحاجة إلى معرفة الظروف العامة له، أين يصرح بأن الخطاب القرآني ينبغي أن ينزل منزلة أي نص لغوي دون النظر إلى ظروف تشكله أو المسائل المحيطة بنزوله للبحث عن تفسيراته، إذ إذا اكتفينا بتحليله تحليلًا علميًا ألسنيًا وسيميائيًا فنحن في غنى عن تتبع أسباب نزوله أو الظروف التي تحيط به وكذا في غنى عن أقوال التراثيين اللاهوتيين.

¹ ينظر: قراءات في القرآن ص 171.

ومما ينتقده أركون زعمه أن في أسباب النزول ما كان عبارة عن قصص، حكايات وخرافات، وبعضها مما وضع كذباً، خدمة لأرائهم وتفسيراتهم، ينظر قراءته لآية الكلاله، المرجع نفسه ص 253 وص 257.

² أبو الحسن الواحدي، أسباب النزول للواحدي، ص 303.

ولكن في المقابل نجد يدعو إلى ضرورة وضع الآيات القرآنية في سياقها، وإطارها الزماني والمكاني ومعرفة هذه الوضعية العامة للخطاب القرآني كسبيل لتحليل الآيات واستنباط الدلالات¹.

2.4. تناقضات أركون في معرفة الوضعية العامة للخطاب القرآني.

يعبر أركون بصريح العبارة أنه من المستحيل ومن غير الممكن إطلاقاً الوصول إلى إدراك الوضعية العامة للخطاب القرآني، قال أركون في معرض دراسته لسورة الفاتحة: « فالشيء الذي نحلم به والممتنع عن التحقيق هو أن نستطيع وصف الوضعية العامة للخطاب بشكل شمولي، أقصد: وصف الظروف التي لفظت فيها سورة الفاتحة بشكل شفهي لأول مرة²»، ويؤكد أركون على هذا المعنى فيقول: « هذا مستحيل بالطبع، لأننا لم نر النبي يتلفظ بها، ولا نعرف في أي الظروف تلفظت بها أول مرة ولا أمام أي جمهور³».

ثم لن يطول بأركون الأمر حتى يهتدي إلى معرفة الوضعية العامة للخطاب القرآني كلما أراد أي يدلل على فرضياته، أو يقوى استنتاجاته، وإذا ما أراد نقد التفسير الأثرية والتقليل من قيمة المعاني القرآنية، ففي معرض كلامه عن شعيرة الحج يُظهر أركون معرفته بالبيئة والموقع الجغرافي لمكة، وأنها من أقدم العصور فهي نقطة تقاطع للقوافل على الطريق وأنها تربط جنوب الجزيرة العربية بشمالها، وأن فيها نبع زمزم، عالماً بساداتها، مدركاً بعقائد أهلها من إيمانهم بالجن وقوى الأشجار، وفشو الخرافات والسحر وأن هذه العقائد والصفات استمرت حتى بعد نزول القرآن، والعجب كل العجب أن أركون وهو يصف جيداً كثيراً من الوضعية العامة للخطاب القرآني يصرح بأنه لن يقف طيلاً عند ذلك وإنما سيذكر بعض المعطيات فقط⁴، وهذا إن دلّ فإنما يدل على أنه ذو دراية جيدة به.

إدراكه للتشكيل البشري المؤسس لفهم ظروف نزول الخطاب، من نبي مرسل يتلقى الخطاب من الله، وأن له صحابة مؤمنين موالين، متبعين له ومبجلين، و في المقابل يوجد معارضون له منكرون من الكفار والمشركين. إما يرفضون الاستماع إلى القرآن والإيمان به أو يستمعون فقط دون الإيمان والتسليم⁵، كما يصف أركون في قراءته التأويلية لآية السيف من سورة التوبة الظروف العامة للخطاب بجل مقوماته ومراتبه المذكورة، أين يقول أركون بأن

¹ ينظر: التشكيل البشري للإسلام ص162_163.

² القرآن من التفسير الموروث إلى تحليل الخطاب الديني ص 118.

³ قراءات في القرآن ص157.

⁴ ينظر: المرجع نفسه ص475،474،473.

⁵ ينظر: القرآن من التفسير الموروث إلى تحليل الخطاب الديني ص35.

أصل الجهاد عند المسلمين ودافعه الحقيقي هو إعادة بناء سلطة سياسية موازية للسلطة المعارضة للمسلمين، عارضاً وجهة نظر الكفار والمنافقين في المسلمين وبأنهم يسخرون منهم ويستهنئون¹، بل يصبح أركون عالماً حتى بالوضعية العامة لما بعد نزول الخطاب القرآني أي الوضعية العامة للصحابة وللمفسرين حينما أراد الطعن في تفاسيرهم واجتهاداتهم، أين يزعم أن الصحابة زادوا وأنقصوا من القرآن مطابقة لأوامر السلطة السياسية آنذاك وأن تفاسير العلماء والفقهاء مجرد تلاعبات لمسيرة الوضعية الاجتماعية لهم².

اعتراض و إلزام :

قد يقال بأنه لا تعارض بين أقوال أركون ولا تناقض بينها، فالوضع العام للخطاب قد يكون غير معروفاً في سورة كالفاتحة، معروفاً في سورة أخرى كالتوبة، ويجب بأن كثيراً من الظروف العامة للخطاب التي يذكرها أركون مما ليس خاصاً بسورة بعينها، بل هي من طبيعة البيئة والأفراد التي يندرج فيها الخطاب القرآني فلا تخصيص، وقد عرفنا هذه الظروف من القراء ومن كثير ما روي من المرويات سواء في كتب الحديث أو كتب السير والتاريخ. بل حتى أركون نفسه يصرح بأن القرآن مدونة، وأن عباراتها أنتجت ضمن نفس الوضعية العامة للخطاب³ ولو سلّم جدلاً بالتخصيص يقال إن أركون يُصرّح أنه يمكن تعميم المنهج والدراسة على الخطاب القرآني عامةً عقب دراسته لسورة الفاتحة لأن تركيب الخطاب القرآني واحدٌ متشابه⁴، ومنه فعلية أن يعمم الوضع العام للخطاب القرآني أيضاً على كل القراء، إما طلباً أو تركاً، معرفةً أو جهالةً على كل قراءاته وفي أي موضع من مواضع القرآن، لأن كل القراء نزل في ظروف عامة واحدة لم يتبدل مجموعها وإن تغيرت ربما أحادها إذ أن الأصل واحد (يراد بتغير أحادها تغير في بعض جزئيات الظروف العامة كتغير الأفراد المعارضين مثلاً أو المواليين، أو كتغير آراء بعضهم في بعض، لأن المراد البحث فيه مثلاً أصل المعارضة والموافقة كظرف من ظروف الخطاب وليس دراسة آحاد الأفراد والجزئيات)، فهلا عمم ما كان معلوماً من الظروف العامة لسورة واثنين وثلاثة على غيرهم من السور؟، أو ما أدركه على ما لم يدركه؟، وهو الذي يعمم منهجه في الدراسة من موضع على سائر مواضع القراء؟، ثم لم يبق لأركون سبيل في كلامه عن استحالة معرفة الظرف العام للخطاب القرآني، بعد كل ما تبين من القراء والسنة وكتب السيرة والتاريخ وأسباب النزول إلا إذا قيل بأن هذه المستندات كلها لا وجه

¹ ينظر: قراءات في القرآن ص 606.

² ينظر: المرجع نفسه ص 258.

³ ينظر: القراءان من التفسير الموروث إلى تحليل الخطاب الديني ص 114.

⁴ ينظر: المرجع نفسه ص 133.

للصحة فيها ، وأركون لا يقول بذلك إذ قراءته الحداثية كثيراً ما تذكر ما تم الكلام عنه، فإذا كان هذا هو معنى الظروف العامة للخطاب القرآني، وهذه هي مصادر معرفتها فلينتقل إلى بيان دوافع تناقضات أركون في المسألة.

3.4. دوافع تناقضات أركون في معرفة الوضع العام للخطاب القرآني:

أ. تنوع المناهج المعتمدة واختلاف مواضع توظيفها.

لا شك أن محمد أركون ممن ينادي بحشد المناهج الحديثة وتسخيرها في إعادة قراءة النص القرآني قراءة حداثية كالمناهج التاريخي¹ ، والمناهج الألسني بمختلف مناهجه ومدارسه، كالمدرسة البنوية القائمة على دراسة النصوص دراسة لغوية داخل البنية النصية وبعيدا عن السياقات الزمانية والمكانية، والتي يعبر عنها بمبدأ المحايثة²، جاعلا نصب عينيه هدف التخلص من القراءات الأثرية للقرآن وبناء تفسير وتحليل جديدين ، وإذا نظر بتمعن في تطبيقه لهذه المناهج ككل، ونظر إلى هذه المناهج في ذاتها ظهر جليا التناقض بينها كقضية اعتبار السياق الزماني والمكاني في التاريخية وعدم اعتباره في الدراسة الألسنية البنوية.

و إذا تتبع أيضاً سياق كلِّ تقرير يُقرره فيما يتعلق بالوضعية العامة للخطاب القرآني بين وجوب معرفتها من عدمه، وبين إمكانية إدراكها من استحالاته وكذا سياق توظيفها أو تجاهلها يمكن أن يُتوصل إلى سبب تناقضاته في مسألة الوضعية العامة للخطاب.

في سياق تأصيله لقراءته الألسنية ودعوته إليها يُصر أركون على اعتبار القرآن نصا لغويا بحثنا تدرس معانيه وتستنبط دلالاته من داخله بعيدا عن ما يتعلق به شخصيات مقدسة أو بيئة نزل فيها، أو من ظروف تاريخية محيطة به، لأن أصول القراءة الألسنية في الغالب تقتضي هاته الموصفات ، أو عندما يقررها ويحيل معرفتها كما في قراءته الألسنية لسورة الفاتحة، أين كان من أول ما نبه عليه أهمية معرفة الوضعية العامة للخطاب المتعلق بهذه السورة ولكن أحال معرفتها، وجعلها من الشيء الذي يُحلم به ولكنه غير ممكن الوصول إليه إطلاقا³، حيث

¹ هو دراسة النص القرآني بالمنهج التاريخي، وذلك باعتباره ظاهرة تاريخية ومنتج مرتبط بالزمان الذي حدث فيه والمكان الذي تجلى فيه، ينظر: عبد الحفيظ صبحي، القراءة التاريخية للقرآن الكريم، مقال شبكة الألوكة الإلكترونية سنة 2017م.

² تعتمد القراءة الألسنية خاصة البنوية منها على قراءة النص من أجل ذاته ولذاته، بعيدا عن معرفة مؤلفه أو ظروف تشكله. ينظر: محمد محمد يونس علي، مدخل إلى اللسانيات العامة سنة 2004م ص 67-68.

³ ينظر: القرآن من التفسير الموروث إلى تحليل الخطاب الديني ص 118.

يقول: « بما أن النص يمتلك مثل هذه البنية الملائمة أو المحايدة فإن مسألة المؤلف لا تعود تطرح من خلال المفاهيم المعتادة... فالنسيج اللغوي للنص يبلغ من الخصوصية حد أن المؤلف ينبثق من خلاله¹ ».

وإذا أراد التأصيل لتاريخية القرآن وتطبيق المنهج التاريخي أو تطبيق المنهج السيميائي عليه ثم الخط من قيمة بعض الشعائر الدينية القدسية أو التقليل من دلالة بعض الآيات القرآنية (بغية رد التفاسير الأثرية دائما) تجده يدعو إلى أهمية الوضعية العامة للخطاب القرآني وضرورة معرفتها، ثم يفيض ذكرها ووصفها كأنه ابن زمانها ومكانها، ويلاحظ هذا في قراءته السيميائية لسورة التوبة أيضا حيث يقول: « الهدف الأول لهذه القراءة التفسيرية للقرآن هو الكشف عن أهمية المعطيات والوقائع التاريخية ووضوحها... هذا يساعدنا على التقدم في البحث الخاص بالكشف عن التركيبة النفسية المتضمنة داخل الخطاب القرآني² ». ثم في قراءته لقول الله تعالى: ﴿فَإِذَا أَنْسَلَخَ الْأَشْهُرَ الْحُرُمَ فَاقْتُلُوا الْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدْتُمُوهُمْ وَخُذُوهُمْ وَأَخْصِرُوهُمْ وَأَقْعُدُوا لَهُمْ كُلٌّ مَرْصِدٍ فَإِنْ تَابُوا وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوْا الزَّكَاةَ فَخَلُّوا سَبِيلَهُمْ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴾ [التوبة: 5] يفيض أركون في ذكر كثير من مواصفات الحالة العامة للخطاب، وكذلك أثناء كلامه عن شعيرة الحج في الفكر الإسلامي وانتقاصه منها وتفرغها من القيمة الروحية لها يسهب في الكلام على الحالة العامة للخطاب ويطنل في الوصف³.

ب. التحكم وعدم التزامه بالأمانة العلمية ثم محاولة الوصول إلى أهدافه بشتى الوسائل.

الأهداف التي يريد أن يصل إليها أركون في مشروعه الفكري صرح بها في مواضع من كتبه ، وهي أساسا إعادة قراءة النص القرآني قراءة حدثية معاصرة تنفتح على معان ودلالات لا محدودة و تتماشى والبيئة المعاصرة، ثم بناء فكر ديني تنويري منفتح يضم كل الديانات ويجمع التوجهات والآراء المختلفة ، مع هدم التفاسير التراثية اللاهوتية كما يعبر عنها⁴.

أما التحكم وعدم الالتزام بالأمانة العلمية فيتضح في عزو كثير من الأقوال أو الممارسات للإسلام والمسلمين، ثم إلى الصحابة والمفسرين بما لا وجه للصحة فيه ولا مستند له عليه، ومشكلته تكمن في عدم رجوعه إلى المظان الأصلية، بل يعتمد على الوسائط، وأغلب أصحابها من المستشرقين.

¹ المرجع نفسه ص130.

² ينظر: قراءات في القرآن ص599 إلى ص606.

³ ينظر: المرجع نفسه ص606، و من ص462_490.

⁴ ينظر قراءات في القرآن ص 148_149.

فهذه الأمور وغيرها جعلت من أركون يتخبط في تناقضاته حول موضع بحثنا، فتارة يطلب معرفة الوضعية العامة للخطاب القرآني وتارة يتركها، ثم تارة يستحيل معرفتها وتارة يعرفها ، أين تجده يقرر أمراً ثم ينفيه تبعاً لهواه ولما أراد الوصول إليه في التالي، وتبعاً للفرضية التي يريد تأكيدها أو نفيها، فإذا أراد نقد التفسير التراثية والخط من قيمتها أو رد أصول استدلالها تجده يرفض اعتبار ظروف الخطاب ووضعيته العامة في أصول التفسير ويكتفي بالنص لذاته بعيداً عن الجوانب المحيطة به.

5. الوضعية العامة للخطاب القرآني لسورة الفاتحة _أموذجاً_.

تقدم الكلام عمّا ذكره أركون من استحالة معرفة الحالة العامة للخطاب القرآني المتعلق بسورة الفاتحة، ولا شك أنه بعد ما تقرر من بيان المراد بالوضعية العامة للخطاب القرآني ومصادر معرفتها وكذا تناقضات أركون فيها وأسبابه ، ويمكن الجواب عمّا ادعاه ببيان الظرف العام لسورة الفاتحة، بنوع من الإيجاز.

أما ما يتعلق بالمحيط الفيزيائي والاجتماعي فلن يتكرر الكلام عنه، لأنه مما تشترك فيه كل آيات القرآن وسوره، إذ هي من الثوابت التي لا تتغير بسرعة، ولكن فيما يتعلق بمكان نزولها هل هي مكية أو مدنية فهذا مما اختلف العلماء فيه على قولين مشهورين أقواها وأصحّها أنها نزلت في مكة¹، وهي بيئة صحراوية، معروف أصحابها والحالة الاجتماعية لهم، وتوجهاتهم ووجهة نظرهم في النبي صلى الله عليه وسلم وأصحابه وفي القرآن والإسلام بما يغني عن التكرار.

_ الأحداث التي سبقت نزولها: نزلت سورة الفاتحة بمكة قبل الهجرة، وهي من أوائل ما نزل، هي ثالث ما نزل على النبي _صلى الله عليه وسلم_ بعد العلق والمدثر، وفي سبب نزولها أنه _صلى الله عليه وسلم_ كان إذا جاءه جبريل بالوحي يسمع منادياً يناديه من السماء فيفر منه هارباً، فأخبره ورقة بن نوفل أن إذا جاءه المنادي فلينصت لما يقول، فلما ناداه مرة أخرى قال له النبي _صلى الله عليه وسلم_ لبيك فقال: قل أشهد أن لا إله إلا الله وأشهد أن محمداً رسول الله ثم قال: قل: {الحمد لله رب العالمين الرحمن الرحيم مالك يوم الدين} حتى فرغ من فاتحة الكتاب³².

¹ ينظر أسباب النزول للواحد ص 18.

³ ينظر: أسباب النزول للواحد ص 19.

ولا شك أنه يمكن أن نستخلص بنظرة عقلية ترابطية مجمل الأحداث التي سبقت نزولها بنوع أكبر وهي:

- ___ نزلت وقت بداية نزول الوحي على النبي صلى الله عليه وسلم.
- ___ خوفه صلى الله عليه وسلم من المنادي وأنه لم يكن يعرف جيدا أن هذا من نزول الوحي عليه نتيجة التحول المفاجئ له من كونه رجلا عاديا إلى رسول مبعوثٍ ونبيٍّ مصطفى .
- ___ بعض الأشخاص في مكة على علم بحالة النبي صلى الله عليه وسلم كخديجة وورقة بن نوفل وعلي بن أبي طالب وأبي بكر الصديق.
- ___ عدم فشو دعوة النبي صلى الله عليه وسلم واشتهارها.

حال المستمعين وقت سماعها من الناطق الأول النبي _ صلى الله عليه وسلم _ من موالين ومعارضين: أما الموالون من الصحابة المؤمنين فمعلوم حالهم، فخديجة رضي الله عنها معينة واقفة مع النبي صلى الله عليه وسلم، وغيرها مؤمن مصدق لما جاء به كعلي بن أبي طالب وأبي بكر، وغيرهم من الصحابة يتسارعون في نقلها لبعضهم البعض كحالهم المشهورة في كل أمر ينزل.

أما المعارضون: فهم كفار قريش وساداتها فقد لاقوا النبي صلى الله عليه وسلم بالاستهزاء والسخرية، بالسب والثلب والانتقاص حتى قبل أن يقرأها كاملة عليهم إذ رأوا أنه جاء بما يخالف دينهم وطريقة آبائهم، فعن ابن عباس قال: قام النبي صلى الله عليه وسلم بمكة فقال: {بسم الله الرحمن الرحيم الحمد لله رب العالمين} فقالت قريش: دق الله فاك¹.

إذا طبقنا منهجية أركون في دراسة الوضعية العامة، و قدمنها هاتمه الأوصاف وغيرها من المعلومات حول سورة الفاتحة لشخص ليس له أدنى معرفة بالقرآن الكريم وأهدافه والغاية منه، وليس له دراية بالبيئة التي نزل فيها ولا بظروفها، فمن المؤكد أنه سيأخذ صورة لا بأس بها وبشكل جيّد وجيّد مقبول عن الوضعية العامة للخطاب لهذه السورة، فلماذا أغفلها أركون حين دراسته واستحال معرفتها؟.

6. خاتمة.

¹ ينظر: أسباب النزول للواحدي، ص 19.

في خاتمة هذه الدراسة الموجزة لموضوع الوضعية العامة للخطاب القرآني عند أركون، يمكن القول أنه تُؤصل إلى النتائج التالية:

يعرّف أركون الوضعية العامة للخطاب القرآني بنفس التعريف اللغوي الألسني، ومعناها مجموعة الظروف التي جرى فيها الفعل الكلامي المادية والاجتماعية، وكذا معرفة الأشخاص المستمعين وردود فعلهم نحوه من موالين ومعارضين، مع معرفة نظرة كل واحد منهم في الآخر، وأسباب النزول تعتبر من جملة الوضعية العامة للخطاب القرآني بشهادة أركون، لأنها من تلك الأحداث والوقائع التي سبقت عملية التلفظ بالقرآن، ولما لها من أهمية في فهم التنزيل وإعانة على التفسير.

يُعتبر القرآن الكريم والسنة المطهرة من جملة المصادر يتوصل بها إلى معرفة الوضعية العامة للخطاب القرآني لما دلت عليه الآيات القرآنية والأحاديث النبوية إجمالاً أو تفصيلاً، وكذلك كتب التاريخ والسيرة النبوية وكتب أسباب النزول.

أركون يتناقض في دراسته لهذا الموضوع من جهات عديدة، تارة يظهر الحاجة إلى معرفة ظروف الخطاب وتارة يخالف، ثم تارة يميز إمكانية معرفتها كما في قراءته لسورة التوبة، وتارة يستحيل معرفتها كما في سورة الفاتحة، ويرجع ذلك التناقض لتنوع المناهج التي يستعملها أولاً، وللتحكم وغياب الامانة العلمية عنده ثانياً. وفقاً لما قُدر في البحث، وتتبع المصادر المذكورة، ظهرت إمكانية معرفة الوضعية العامة للخطاب القرآني في سورة الفاتحة بشكل جد مقبول.

5. قائمة المراجع:

- ___ ابن هشام، عبد الملك بن هشام، السيرة النبوية، الطبعة 2، سنة 1375هـ/ 1955م مكتبة البابي الحلبي وأولاده مصر.
- ___ أبو الحسن الواحدي، علي بن أحمد، ط2، سنة 1412هـ/ 1992م، دار الإصلاح الدمام.
- ___ أركون، محمد، التشكيل البشري للإسلام سنة 2013م، الطبعة 1 المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، المغرب.
- ___ أركون، محمد، القرآن من التفسير الموروث إلى تحليل الخطاب الديني، الطبعة 2، 2005
- ___ أركون، محمد، قراءات في القرآن، الطبعة 1، سنة 2017م، دار الساقى، بيروت، لبنان.

- __ البخاري، محمد بن أسماعيل، صحيح البخاري، الطبعة 5، سنة 1414هـم 1993م دار ابن كثير دمشق سوريا.
- __ بن زين، رشيد، المفكرون الجدد في الإسلام، سنة 2004م .
- __ علي حسن، محمد، المنار في علوم القرآن الطبعة 1، سنة 200م / 1421هـ، مؤسسة الرسالة، بيروت، لبنان.
- __ المباركفوري ، صفى الدين، الرحيق المختوم ، طبعة سنة 1428هـ / 2008م، الجامعة السلفية الهند.
- __ محمد يوني علي، محمد، مدخل إلى اللسانيات، الطبعة 1 سنة 2004م دار الكتاب الجديد المتحدة، بيروت، لبنان.
- __ بنيحي، إبراهيم، مناهج الحدائين في قراءة النص القرآني، مركز تفسير للدراسات القرآنية.
- __ عبد الحفيظ، صبحوض، القراءة التاريخية للقرآن الكريم، مقال شبكة الألوكة الإلكترونية سنة 2017م ،
- __ . /https://www.alukah.net/sharia/